التداولية بين المصطلح وفلسفة المفهوم . مقاربة تداولية للمثل الشعبي

سي كبير أحمد التجاني
جامعة ورقلة (الجزائر)

المصطلح :

إن مفهوم التداول بأنه **التعاقب** على أمر ما، مرة بمرة أي الأخذ والعطاء فيه بسيرورة متواترة و ثابتة ، كما يعني أيضاً **الشيوع** و **الذيوع** في وسط معين إلى درجة الشهرة وعدم الإنكار من طرف الجميع .

و الفعل دَوَلَ ، دَولة يعني في لسان العرب **الانتقال** من حال إلى حال[1] .

وكذلك الدّوْلـةُ : انقلاب الزمان و العُقبَـةُ في المال ، وانقلاب الدهر من حال إلى حال ، و دَولة = الكَرَّة أي المرة .

و الجمع: دولٌ وقد أدَالهُ و تداوله أخذه بالدُّوْلِ و دواليك أي مُدَاولةً على الأمر مرة بمرة، و **انْدال** ما في بطنه أي خرج، و دالةٌ = الغلبة، و دالت الأيام أي دارت.

والتداول يحمل معنى المواراة و الإخفاء حيث لا تعلم نية المتكلم و لهذا كان من معاني التداول = الخسة لاشتراكهما في **إضمار النية**[2].

وإذا أردنا فهم العلاقة بين المعاني المعجمية المذكورة آنفاً و الاصطلاح الأدبي لعلم التداولية[3] نجد أن التداولية سميت بهذا الاسم لأنها تبحث في المعنى المستتر وراء نية القائل و هذا ينطبق و مفهوم الخسة و المواراة ، كذلك التداول هو الفعل و التداولية تبحث في فعل القول، وأيضا نجد معنى الغلبة في التداولية من خلال بحثها في الحِجَاجِ والذي يتوافق و مفهوم الغلبة إذن يمكننا القول بأن مصطلح التداولية **يستوعب كل المفاهيم** التي يبحث عنها هذا العلم في اللغة .

وجاء في الآية السابعة من سورة الحشر في القرآن الكريم قوله تعالى :

{مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ }[4] .

وقال أيضا في الآية 140 من سورة آل عمران :

{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }

و **الدُّؤلـولُ** الداهية و الجمع الدّآليلُ و الدّؤلاتُ[5] ، وهذا المعنى أيضاً يفسر ما يعرف بحكمة المثل أو القبول الجمعي للمثل لما فيه من دهاء و وذكاء و فطنة .

في فلسفة مفهوم التداولية:

لقد توافق بروز التداولية كعلم مع نشأة العلوم المعرفية[6] فحينما اتخذ علم النفس في بداية القرن العشرين و في أمريكا تحديدا، وجهته السلوكية المتأثرة بفلسفة العقل و الذكاء الاصطناعي، و التي مفادها أن تعلم اللغة يخضع لثنائية (التأثير و الاستجابة) المستقاة من تجارب علماء النفس على الحيوانات بتعليمها بعض الأمور البسيطة و تعديل سلوكياتها المعرفية حين الاستجابة بتعزيز أو تكييف . وردا على السلوكيين ظهرت التداولية . مع بقية العلوم المعرفية . كعلم يبحث في« كيفية اشتغال العقل/الدماغ و بيان كيف أن العقل . البشري خصوصا . يكتسب معارف ويطورها ويستعملها اعتمادا ، من جملة ما يعتمد ، على الحالة الذهنية . »[7].

التداولية مبحثاً من مباحث الدراسات اللسانية التي تطورت إبان سبعينات القرن الماضي. « وهي تدرس كيفية فهم الناس للخطاب وإنتاجهم لفعل تواصلي أو فعل كلامي في إطار موقف كلامي ملموس ومحدد . و قد ارتبطت التداولية باستعارة تهكمية هي أنها (**صندوق القمامة**) للسانيات حيث يرمى فيها كل مالا يمكن دراسته ضمن مبادئ اللسانيات آنذاك وهو الفونولوجيا (الصوتيات) وعلم الدلالة والنحو (التركيب)، ومن بين النقاط أن التداولية وبخلاف النحو الذي يستند إلى قواعد محددة، مبهمة المبادئ حيث أن هذه المبادئ غير قادرة على إقناع الناس بحدود السياق[8] الذي يؤخذ بنظر الاعتبار لتحديد المعاني الممكنة لملفوظ ما»[9]

ويعرفها **ديكرو *Ducrot*** بأنها « تأثير المقام على المعنى فالتداولية تدرس كُلّ ما في معنى الملفوظ المربوط بالمقام الذي قيل فيه، و لا بالتركيب اللساني الذي أستعمل فيه »[10] فديكرو هنا يجرد اللغة من خصوصية حمل ألفاظها للمعاني ويفرغ كل ذلك في نظرية المقام التي تعتني بدلالة الملفوظات في المقامات التي قيلت فيها، فالمقام هو الذي يُلبسُ الألفاظ حُلتها المعنوية الخاصة به، وهذا ينطبق إلى حد بعيد على **الأمثال** عموماً، إذ أنها تحمل معاني مسبقة مرتبطة بقصتها السابقة لكنها تحمل في كل مرة تقال فيها معنى جديد هو وليد المقام الذي قيلت فيه، و من ثمة فالتداولية جديرة برصد هذه التغيرات في المعاني التي تطرأ على الأمثال في كل مناسبة تقال فيها .

و التداولية كما عرفها **دومينيك مانقونو***Dominique Maingueneau* في قوله:(التداولية*Pragmatique*: هي اصطلاح مدعاة دائما للالتباس ، فهو مستعمل في الوقت نفس للإحالة على مجال لساني ورؤية خاصة للغة و يحيل لفظ التداولية على مكون من مكونات اللغة ، إلى جانب المكون الدلالي و المكون التركيبي ، وهذا المكون التداولي انبثق عن التقسيم الثلاثي المدشن من قبل الفيلسوف الأمريكي ش.موريس في 1938م الذي ميز مجالات ثلاثة في الإحاطة بأي لغة ، سواء أكان صوريا أو طبيعيا « علم التراكيب ،علم الدلالة »[11] و التداولية التي تهتم بالعلاقات القائمة بين الأدلة و مستعمليها و استعمالها و آثارها من حيث معناها الضيق ، تطلق التداولية إذن على التخصص أوالتخصصات التي تعنى بالمكون التداولي، و عندما نتحدث عن المكون التداولي فإننا نقصد بذلك المكون الذي يعالج وصف معنى الملفوظات في سياقها ... و التداولية توصيف لتصور اللغة بشكل أعم للتبليغ/الاتصال ، و الذي يعارض التصور البنوي، في هذا الباب، تسري التداولية في العلوم الإنسانية كافة ، إن التداولية ليست بنظرية خاصة بقدر ما هي تشابك للعديد من التيارات التي تشارك في عدد من أمهات الأفكار، وبخاصة سيميائية بيرس و نظرية أفعال الكلام لأوستين»[12].

إن التداولية في مفهومها الاصطلاحي « منهج في تحليل الخطاب أكثر منها اتجاه نقدي محدّد. فهي تضم تقريباً كل الاتجاهات الأخرى كالنقد النفسي و الاجتماعي وغير أن التداولية تستفيد من هذه العناصر وربطها بظروف

إنتاج الخطاب »[13] أي أنها لتأويل خطاب مدونة ما لا ترتكز على أية مسلمة من المسلمات التي تقوم عليها المناهج السابقة بل توظفها في حدود ما يقتضيه المقام.

فالتداولية من حيث أنها منهج حداثي لتحليل الخطاب الأدبي ترتكز على عدة آليات أهمها التلفظ المرتبط بالمقام، « و المنهج التداولي من هذا المنظور، يهدف إلى إنتاج المعنى في منظومة العلامات... و التداولية كمنهج ترتكز على عملية التلفظ بالإضافة إلى السياق المرجعي أو السياق المرتبط بالمقام، والخطاب أولاً و قبل كل شيء نشاط تلفظي»[14] يمكن تحليله انطلاقاً من دراسة نشاط تلفظي داخل المقام و هذا . يبدو صعباً في اعتقادنا . لأن النشاط التلفظي متعدد النبرات بالنسبة للكلمة الواحدة فما بالك بالخطاب ككل، كما أن اللغة المكتوبة عاجزة عن نقل كل المؤثرات الصوتية التي ترافق التلفظ، حتى و إن استعملت عناصر أخرى مثل النقطة. والفاصلة، والفاصلة المنقوطة ؛ و النقطتان : و النقاط المتتابعة ...وعلامات التعجب! والسؤال ؟ وغيرها من العناصر الرمزية غير الصوتية التي تظل عاجزة عن نقل محتوى التلفظ في مقامه.

فالتداولية إذن هي دراسة اللغة في المقام الذي قيلت فيه و ضمن السياق العام للخطاب للتمكن من المعنى الناشئ من ذاك التواصل و ليس من البنية التركيبية للغة وهنا تأنس التداولية بعلم الاجتماع و المنطق للظفر بالمكون التداولي المنشود.

و حسب ما ذهب إليه هانسون فإن نظام البرنامج التطوري المتنامي للتداولية يتركز على ثلاثة درجات للتداولية وهي كالتالي :

1)تداولية الدرجة الأولى: وهي الرموز الإشارة، للتعابير المبهمة ضمن ظروف استعمالها.

2)تداولية الدرجة الثانية : فهي دراسة طريقة تعبير القضايا ، في ارتباطها بالجملة المتلفظ بها، إذ يجب القضية المعبر عنها أن تتميز عن الدلالة الحرفية للجملة، ويذكر **ستالناكر** ، أن السياق يتسع حينما يخالطه حدس المخاطبون

تداولية الدرجة الثالثة : فهي نظرية أفعال الكلام، و يتعلق الأمر فأفعال اللغة مسجلة لسانياً، إلا أن هذا لا يكفي لرفع الابهامات ، و الإشارة إلى ما أنجز فعلاً عبر هذا الموقف التواصلي.من هنا يجعل وجود أفعال اللغة الضمنية المشكل أكثر تعقيداً.

فللتداولية إذن مهمتان :

* تعريف أفعال اللغة المهمة : أي تحليل الأفعال الانفعالية .
* طبع خطوط السياق الملفوظ : الذي يساعد على تحديد نوعية القضية التي تعبر عنها جملة ما .[15]

التلفظ أهم مرتكزات التحليل التداولي :

التلفظ باعتباره عملية تحقق التبادل الألسني بين المتخاطبين، يخضع إلى ظروف خاصة، تعتمد على حالة المتلفظ النفسية و تأثره بالمقام الذي هو فيه، « و العلاقة بين التلفظ و إنتاج الملفوظ وظروف التبليغ ...فكيفما كانت النظرية المتبناة لإبراز إنتاج الملفوظ، تظل الإشارة الخاصة بامتلاك اللفظ لملفوظه متمثلة في المؤشرات أو أدوات التواصل (الأنا ، الأنت ، الآن ، الهُنا ، غدا ، أسماء الإشارة ، وقسم من نظام الأزمنة، ...الخ) فالعلاقات بين التلفظ و تعبير اللافظ أربعة هي :

1. المسافة : يتبنى المتكلم الملفوظ . كما يحدث مع الأمثال . و من خلاله لا يبلغ الخبر إلى المخاطب و حسب، بل أنه يبلغ له رسالة يفهم منها أن المادة الملفوظة من صنعه نظرياً، الآن . إذا كان أنا الملفوظ يمتزج مع أنا التلفظ . إشارة إلى المسافة الدنيا، الهو إشارة إلى المسافة القصوى، لا بد أن نشير هنا إلى الأمية البالغة التي كتسيها الأداء الصوتي .
2. الكيفية : يخضع إسهام الفاعل المتكلم في خطابه و عملية التلفظ لاعتبارات متعددة (إجراءات التأكد ، الأداء الصوتي ...الخ).
3. الشفافية /الغموض : يكون الملفوظ شفافاً إذا اختفى فاعل التلفظ . كما هو الشأن في الحكمة و المثل . إلى درجة يتبنى فيها المتلقي الملفوظ، و يجب على القارئ أن يتحول إلى فاعل تلفظ لتبني الملفوظ و حل الإبهام .
4. التوتر : النص هو عن رغبة في التبليغ مع الآخر و العالم وتقوم دراسة التوتر على الإشارات العلائقية الموجودة داخل الملفوظ و هي الأفعال، الضمائر و الأدوات . »[16]

يعد التلفظ من أهم مرتكزات[17] التحليل التداولي لذا فقد أولاه العلماء عناية كبيرة لكننا سوف لن نقف عنده كثيراً لأن دراسة التلفظ لابد أن تكون في إطار سياق معين و نحن ندرس في الأمثال الشعبية معزولة عن السياق على الرغم من أن هناك « عوامل كثيرة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار في عملية التلفظ مثل الحالة النفسية و النبرة و المحيط المادي و الاجتماعي، وغير ذلك »[18]. و من الواضح أن الملفوظ هو نتيجة البناء اللغوي وليست المادة اللغوية إلا مكوناً من مكوناته، مع الأخذ بعين الاعتبار التلفّظ و السياق التاريخي و الاجتماعي و الثقافي الذي يتلفظ فيه، ذلك لأن السياق يلعب دوراً قميناً في عملية التلفّظ و هو الذي يكسبها المعنى السياقي .

إن مسألة التلفظ تندرج عموماً ضمن نظرية التواصل، وعليه فإن كثيراً من علماء اللسان المهتمين بلسانيات التلفظ اعتمدوا نموذج جاكبسون المبيين للعلاقة بين المتكلم، و المتلقي و عملية التواصل بينهما:

مخطط جاكوبسن

السياق

المرسل ⟵ الرسالة ⟵ المرسل إليه

عملية الاتصال

الوضع أو الشفرة

و يمكن للمثل حين يتلفظ به أن يكون هو(الرسالة و السياق و الشفرة) التي تؤدى بها عملية الاتصال المرسل إليه، و في حالة المثل أيضاً لا يكون الباث أو المرسل هو نفسه الشخص المتلفظ بالمثل بل المجتمع نفسه.

السياق

صوت المجتمع ⟸ المثل ⟸ المتلقي

عملية الاتصال

الوضع أو الشفرة

و لا يمكن للمتلقي الرد على المجتمع، إلا بصوته المضاد او المدى النقيض فيكون المثل المضاد هنا بمثابة المعارض أو المعيق و سنعالج مسألة تضاد الأمثال وفق مفارقة مور، وسنحاول أن نبين العلاقة الوطيدة بين المثلين المتضادين ظاهرياً حسب مور .

ما من شك أن الأمثال من جواهر الأدب التي أثبتت قوة حضورها وبقائها ضمن التداول اليومي و كذا في الخطاب المنتقى المسرود و المكتوب ولكن على الرغم من أن الكثير منها « قد يصل من الروعة و الدقة في إبراز المعنى و تحديد نمط السلوك البشري، . إلى درجة راقية . وقد تضعف إلى درجة أنها لا يصدق عليها إطلاق الأمثال إلا تجاوزاً »[19] وهذا ما حط من قيمة الأمثال الشعبية و خاصة عند الجاهلين و بمراميها البعيدة المدى.

و لا يمكننا الحديث عن الأمثال الشعبية مستقلة عن قرينتها الفصيحة أوالمدرسية بتعبير التلي بن الشيخ، ذلك أن الأمثال الشعبية هي في معظمها تحوير للأمثال العربية القديمة، أو نسج على منوالها،

ولكن هاته الأخيرة و على الرغم من مما يعتري نظام اللغوي الهش المعتمد على لغة الخطاب اليومي أو اللغة العامية الدنيا فإن ما تحمله من فكر و نفوذ و سلطة اجتماعية أعطاها الحق في أن تبرز على مشارف الدارسة الحداثية التي لا تهتم باللغة من حيث هي تركيب بل من حيث هي آداه تواصل و هذا ما قام به الغربيون من أمثال أوستين و سيرل و ديكرو ...

أما أ.ج.**غريماس***A.J.Gremas* في عرض حديثه عن الأمثال و الأقوال المأثور في كتابه الشهير (في المعنى)، محاولات سيميائية بأنه " في اللغة تتميز الأمثال والأقوال بوضوح عن مجموع الكلام بتغير: يكون لدينا عندئذٍ شعور بأن المتحدث يتخلّى طوعاً عن صوته متّخذاً صوتاً آخر لكي ينطق بمقطع من كلام ليس له، و إنما يستشهد به فقط، يبقى على علماء الصوّتيّات أن يوضحوا على ماذا بالضبّط يقوم هذا التّغيير في النغمة. من خلال التلقي وحده، يمكن الادّعاء بأن مثلاً ما أو قولاً مأثوراً يظهران كعنصرين من سنن خصوصي، مدرج ضمن الرّسائل المتبادلة"[20] و يضيف الأستاذ **د.عبد الحميد بورايو** في تعقيبه على هذا القول الغريماسي،(و إذا ما تمعنا في السؤال الذي طرحه غريماس، تجدنا نختلف معه في الجهة التي وجه إليها السؤال ..؛ إذ لا نعتقد بأنّ علماء الصوّتيّات يمكنهم أن يفسروا هذا التّغيّر في النغمة الذي أشار إليه، فالأجدر بنا أن نوجه السؤال إلى علماء اللسانيات الاجتماعية أو الأنثروبولوجيا الثقافية أو علم الاجتماع الثقافي؛ لأن جواباً عن مثل هذا السؤال يقع في منطقة تقاطع هاته العلوم الثلاثة، قبل أن يكون قضية فزيولوجية) و أياً كانت وجهة السؤال فإننا نرى بأن قضية تغير الصوت تثبت ثبات بنية

النص المثلي حتى في المشافهة ، و هذا ما يبين أن الأمثال تحتفظ بخصوصياتها داخل النص أو داخل الخطاب الشفوي فهي دائماً تظهر كلآلئ براقة داخل النص فهي إذن نصوص مستقلة أو لنقل مقاطع[21] تأبى الانحلال في النصوص الأخرى ولا تظهر إلا مضمنة، منصاعة لمتطلبات النص المستقبل لها، مؤدية المعنى الجديد الذي يطلبه المقام المستحدث.

و يضيف الأستاذ **بورايو** تعقيباً آخر لتوضيح الزلل الغريماسي البيّن، حين يستشهد بقول طويل **لبيير بورديو** *Pierre Bourdieu*الذي تكلم عن الخطاب الطقوسي؛ و هي نفس الفعالية تقريباً . يقول الأستاذ **بورايو** . التي يمكننا أن نلمسها في خطاب المثل:«إن، منّ يهمل مسألة استعمالات اللغة، و بالتالي مشكلة الشروط الاجتماعية لاستخدام الكلمات، لابدّ أن يظل طرحه لمسألة سلطة الكلمات و نفوذها طرحاً ساذجاً . فإذا سلمنا بأن اللغة تدرس كموضوع مستقل، وذهبنا مع (دو سوسير) إلى الفصل المطلق بين اللسانيات التي تهتم باللغة في باطنها وتلك التي تهتّمُ بما هو خارج عنها، فإننا نحصر أنفسنا في البحث عن قوة الكلمات و سلطتها داخل الكلمات ذاتها، أي بالضبط حيث لا وجود لتلك القوة و لا مكان لتلك السّلطة، :ذلك أن قدرة العبارات على التبليغ لا يمكن أن توجد في الكلمات ذاتها التي لا تعمل إلا على الإشارة إلى تلك القدرة أو تمثلها على الأصح، فليست سلطة الكلام إلا السّلطة الموكلة لمن إليه أمر التّكلّم والنطق بلسان جهة معيّنة. و الذي لا تكون كلماته إلا شهادة من بين شهادات أخرى، على ضمان التفويض الذي وُكّل للمتكلم»[22]

فما هي ماهية الأمثال في الاستعمال اللغوي؟

و ما أثرها التداولي في الخطاب ؟

أهي رموز إيحائية ؟ أم أنها أوصاف انطباعية و تقريرية ؟

وما هي قيمة المثل اللغوي حين يكون معزولاً عن السياق و قيمته التداولية حين يندمج في خطاب ما ؟

هل الأمثال مظهر من مظاهر التناص أو الاقتباس ؟ أو ...؟

لنتتبع أولاً تصنيف **أوستين** لأفعال الكلام انطلاقاً من سمة التلفظ إلى تحقيق ثلاثة أفعال و هي[23] :

1.فعل الكلام *L'acte Locutoire* : وهو نتاج ملفوظ بصيغة معيّنة و معنى محدّد ويكون للملفوظ قوته و صورته النهائية .

2.الفعل الإنجازي *L'acte Illocutoire* : و السمة الطابعة لهذا الفعل أنه يتحقق بمجرد التلفظ ، و يكفي أن أقول (أن أفعل) فأنا أحقق فعل الوعد بقولي أعد فعل الأمر بقولي آمر، ولهذا الفعل ثلاثة معايير تساعد على تحديده :

- أوّلها أن الفعل يتحقق في كنف الكلام، وهو ليس نتيجة من نتائج الكلام.
- ثانيها أنه يتسنى دائماً لهذا الفعل أن تعاد صياغته بحيث يستعمل فعلاً إنجازيًا مثلاً **خَلَطْـهَا تَصْـفَى** يطابقه آمرك أن تخلطها فإنها ستصفى .
- المعيار الثالث أنه فعل تعاقدي عرفي و تكمن هذه السمة في أن الفعل ليس نتيجة منطقية أو نفسية للمحتوى الفكري الذي يرشح به الملفوظ ، و أنه في حاجة . لكي يتحقق . إلى سلطة المؤسسة و إلى أن يكون المتلفِّظ ذا منزلة في هذه المؤسسة، الملفوظات (فتحت الجلسة / رفعت الجلسة) لأنه لا يتحقق الفعل فيها إلا إذا كان المتلفظ رئيس الجلسة .

1. الفعل التأثيري *acte perlocutoire* : و تكون الغاية من إنتاجه أن نحدث أثراً في السامع و هو أثر يختلف عن مجرد فهم الكلام . وهذا كثير في استعمال الأمثال خاصة حين المحاججة . و تستمد الأمثال الشعبية فعلها التأثيري من سلطتها الاجتماعية.

مثال : جَوّعْ كَلّبَكْ يْتَبْعَكْ ← فعل القول .

آمرك بأن تجوع كلبك ← الفعل الانجازي

أجوع كلبي ليتبعني ← الفعل التأثيري

وقد قسم أستين الفعل الانجازي إلى خمسة أقسام هي : « أفعال دالة على الحكم، أفعال الممارسة، أفعال الإلزام، أفعال العرض و أفعال السلوك. »[24]

و يصنفها **سيرل**[25] إلى خمسة أقسام تختلف في جوهرها عن صنافة **أستين** :

- أفعال الإثبات *ASSERTIFS* : وغايتها تكمن في جعل المتكلم مسؤولاً عن وضع للأشياء و يشمل / التأكيد ، التحديد ، الوصف... وهذا المثل **خُوكْ خُوكْ لا يْغُرَّكْ صَاحْبِكْ** غايته التأكيد.
- أفعال التوجيه *DIRECTIFS* : و غايتها حمل الشخص على القيام بفعل معين وتشمل الأمر ، النهي ، الطلب .. وهذا المثل **لاَ تْكَثَّرْ لَكْلاَمْ عَنّدْ المْلُوكْ لاَ يْمَلُوكْ** غايته الأمر والنهي معاً.
- أفعال الوعد *COMMISIFS* : و غايتها التزام المتكلم بالقيام بشيء التزام المتكلم للقيام بحدث مستقبلي كالوعد أو العقد ... وهذا المثل **نْصَلِّي صْلاَتِي وَ نَلْبَسْ صَبْاطِي** غايته الوعد .
- أفعال تعبيرية *EXPRESSIFS* : التعبير عن الحالة النفسية كالتأسف والاعتذار و السرور...
- أفعال الإعلانات: غايتها إحداث تغيير عن طريق الإعلان و تشمل الأفعال الدالة على ذلك ، الإعلام ، الإخبار ، الإعلان ... وهذا المثل غايته **جَا يَسْعَى وَدّرْ تَسْعَة** الإعلان و التهكم.

و يمكننا أن نطرح هذا السؤال التقليدي الذي أبحر فيه العلماء دونما شراع، فكانت الآراء متعددة، لكنهم أجمعوا على أنها وسيلة تواصل بشري، **فما هي وظيفة اللغة** ؟ إن هذا السؤال التقليدي، الذي يبدو أنه سهل للكثير منا، لا يمكن الإجابة عنه بسهولة لأن اللغة تمثل « موضوعاً يثير دائما نقاشات جادة ، فالبعض يعتقد أن اللغة أولاً و قبل كل شيء وظيفة اجتماعية ، ويعتقد البعض الآخر أن لها، أولاُ وقبل كل شيء ، وظيفة معرفية»[26] و ليس هناك من ينكر دور اللغة كأداة للتواصل الإنساني المتفرد، الممزوج بكثير من التداخلات غير اللغوية في اللغة المستعملة في التواصل بين البشر« وهكذا يشدد غرايس في التواصل اللغوي على نوايا القائل و على فهم المُخَاطَب لهذه النوايا. ولكن، وخلافاً لسيرل، لا يؤسَّس هذا الفهم حصراً على الدلالة التواضعية للجمل و على الكلمات التي تتكون منها هذه الجمل.حيث ميز غرايس *(ضمنيا)* بين مظاهر ثلاثة هي الدلالة التواضعيةٍ *Signification* و الإشارة *Indication* و القصد *Vouloir dire* »[27].

لهذا نجد غرايس يصر على التمييز بين الجملة و القول ، فالجملة التي نُؤلفها، هي سلسلة من الكلمات؛ التي يمكن لزيد أو عمر التلفظ بها؛ في ملابسات مختلفة ولا تتغير بتغير هذه الملابسات، « أما القول فهو حاصل التلفظ بجملة و هو يتغير بتغير الملابسات و القائلين »[28].

فما هو المحتوى الإستلزامي الذي تحمله الأمثال لتبليغ المقاصد ؟ وعند إخفاق التواصل، فانه يوجد سوء فهم و يبطل الاستلزام الحواري و يختل مبدأ التعاون الخطابي .

و هل يمكن أن نعتبر الأمثال طريقةً مُبدعةً في التواصلِ ؟

و إلى أي قانون من قوانين الخطاب يخضع، استحضار الأمثال في المناسبات ؟

و ما هو دور النغمة أو النبرة الصوتية في أداء المعنى الدلالي الرمزي للمثل ؟

يدمج سبربر و ولسن نظريتهما التداولية « في تيار معيَّن من علم النفس المعرفي وهو تيار المنظومية[29] »[30] و من هذا المنطلق و باعتبار الأمثال منظومة لغوية منتجة مسبقاً و تمتاز بثبوت المبنى و تجدد المعنى. فهل يمكننا تأويلها وهي مدونة كلغة وبالتالي نعدها في الدراسة . التداولية اللسانية . ؟ أم في مقام القول وأثناء القول وحينها تكون . تداولية غير لسانية . ؟.

و هل بإمكاننا يوماً ما أن نفهم لغة الحيوانات باعتبار المعاني تستتر في مونيمات الأصوات ؟ و هل يمكن للتداولية غير اللسانية أن تُؤول أصوات الحيوانات ؟ لنفهمها ؟ و كتابة لغتها فيما بعد ؟

إن الأمثال أقوال مناسبة للمقام و للموضوع الذي تقال فيه، فيرى **سبربر و ولسن** « أن قاعدة النوع التي تفرض على القائل أن يعتقد فيما يقوله و أن تكون له أسباب معقولة ، و عن قاعدة الكيف التي تفرض أن نتكلم بوضوح ليكون الحديث مناسبا (دون إرهاق المُخَاطب بحشدٍ من التفاصيل الزائدة) كما يفترض أن نصدق القول»[31] وهذا لا يتسنى في جميع النصوص و الخطابات بل إن بعض الخطابات يتعمد أصحابها الكذب . بنوعيه الفني والحقيقي . و هذا و يجعل البحث التداولي يواجه ورطة حقيقيّة، في لكشف عن نية المخاطِب، و الأمثال لا تتطلب جهدا من قائلها فهي تخضع لثقافة القائل و المقام الحاضر و الرابط بينها وكما أنها تخضع لمبدأ المناسبة و قدرة الاستحضار من الذاكرة .

و للأمثال علاقة وطيدة بنظرية الفكر والكشف عن مقاصد القائل إذ أن تأويل الأمثال يتم من خلال أعمال استدلالية ترتبط بالسياق « و تحليل السياق يعتمد على المعرفة الموسوعية التي نتوصل إليها من خلال مفاهيم الصيغة المنطقية و من المعطيات التي يمكن إدراكها مباشرة من المقام أو المحيط »[32] وهكذا فإن تأويل الأمثال يخضع إلى « إستراتيجية المؤول التي تستند إلى فرضية عقلانية، هي موضوع مجال من المعارف يمكن أن نسميه **نظرية الفكر أو علم النفس الشعبي** فالانتقال من المقاصد الإجمالية يتم نمطياً عبر نظرية الفكر ، إذ يفترض أن كل متلفظ بخطاب[33] يسعى إلى إيصالنا إلى نتيجة أو نتائج عامة هي مقصده الإجمالي »[34] المستحضر للأمثال يسعى إلى ذلك أيضاً غير أنه يوظف الأمثال لتحقيق المقصد الإجمالي الذي يصبو إليه .

إن الأمثال بخاصية الإيجاز توفر على المخاطِب عناء التفكير في جمل تخدم مقصده، كما أنها تمثل دعامة أساسية لسرد الأفكار المؤيدة لمقصد الإجمالي، ضف إلى ذلك أن « تأويل الخطاب يقوم على نسبة مقصد إجمالي إلى قائله ، وكلما سهُل بناء هذا المقصد الإجمالي . أي كلما كانت كلفة البناء أقل، و ذلك باستعمال الأمثال . كان هذا المقصد الإجمالي ثرياً مركباً وازداد ميلنا إلى الحكم على الخطاب المعني و منتجه بأنه منسجم »[35] .

الهوامش والإحالات :

1. **لسان العرب**، مادة دول، ص252.
2. الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط** ، ج1، ص1293.
3. أهم المصطلحات المرادفة للتداوليات ، الذرائعية ، السياقية ، المواقفية ، البراغماتية، على اختلاف المترجمين مما يبين اضطراب المصطلح في الدرس الحداثي العربي.
4. قال أبو عمر بن العلاء : الدَولة هي الظفر في الحرب و في غيره وهي المصدر و الدُولة الشيء الذي يتداول من الأمور والدَولة الفعل .
5. فضائل القرآن ،ج1 ، ص175.
6. **العلوم المعرفية هي** : علم النفس ، اللسانيات بفروعها ، فلسفة العقل و الذكاء الاصطناعي و علوم الأعصاب.
7. آن ربول و جاك موشلار ، **التداولية اليوم علم جديد في التواصل** ، ترجمة د.سيف الدين دغوس، د.محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة دار الطليعة للطباعة و النشر، ط 1،2003، ص28.
8. لا نقصد بـ:(السياق *Context*) التعريف البنيوي الذي أثبته عزت عياد في(معجم المصطلحات اللغوية والأدبية1984): بأنه تلك الأجزاء التي تسبق النص أو تليه مباشرة ، ويتحدد من خلالها المعنى المقصود. ولا نقصد أيضاً به ما ذكره محمد علي الخولي في معجمه (معجم علم اللغة النظري1982) بالسياق لغوي (*Linguistic Contex*): أنه البيئة اللغوية التي تحيط بصوت أو فونيم أو مورفيم أو كلمة أو عبارة أو جملة. ذلك لأن هاته التعريفات ذات أبعاد بنيوية و لسانية تتجلى في حصر مفهوم السياق في مجال الجملة أو الكلمة المفردة أو الصوت و إن ارتقت قليلاً رفعته إلى نطاق النص، و لكنها لم تعر المعطى السياقي الحقيقي المتمثل في الاعتبارات المقامية والتواصلية المعرفية.
9. الثامري عادل، **مقال التداولية واللسانيات**، ، 2006/05/19.
10. *DECROT & TODOROV : NOUVEAU DICTIONNAIRE NCYCLOPEDIQUE DES SCIENCES DE LANGAGE, SEUIL, PARIS, P 131.*
11. علم التراكيب يعنى بعلاقات الأدلة فيما بينها و علم الدلالة يعالج علاقات الأدلة بالواقع.
12. دومينيك مانقونو ، **المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب**، تر: محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط1، 2006/2005، ص92-93.
13. موساوي فريدة، **المقام في الشعر الجاهلي** . تناول تداولي لمعلقتي عمرو بن كلثوم و الحارث بن حلزة . مذكرة ماجستير، تحت إشراف : الأستاذ محمد يحياتن، جامعة الجزائر قسم اللغة العربية و آدابها2004/2003.
14. المرجع نفسه، ص17.
15. المرجع السابق .ص36.
16. بن ملك رشيد، **مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص**، دار الحكمة، دط، 2000، ص70.
17. إن أهم مرالمتكزات التي ينبني عليها التحليل التدولي هي : التلفظ، أفعال الكلام، الضمنيات، الحجاج ، الذاتية، و نظرية التواصل . و سنركز نحن في بحثنا هذا على التلفظ، و الحجاج ، لأنها الأكثر بروزاً في الأمثال الشعبية وبدرجة أقل على أفعال الكلام، الضمنيات.
18. *1 Maingueneau,Eléments de linguistique pour le texte littéaire, p2.*
19. التلي بن الشيخ، **منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري**، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، دط، 1990، ص159 .

20. *A.J.Gremas,Du Sens, Les proverbes et les dictons, Seul,Paris 1970 p.309-314* (نقلاً عن د.عبد الحميد بورايو في محاضرلته لطلبة الماجستير الأدب الشعبي باتنة في أفريل 2005)

21. *1* ذكرنا مقاطع، لأننا نعلم أن معظم الأمثال، هي مقاطع من نصوص قصصية كبرى، هي حكاية المثل .

22. بيير بورديو، **الرّمز و السلطة**، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاءص63-64.

منى برهومي ، **تداولية الأمثال في الرواية المغاربية**، ص51-52.

23. المرجع السابق ، ص52.

24. عمر بلخير ، **تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية** ، منشورات الاختلاف ، ط1 2003،ص60. الأمثلة طبعاً من اسقاطنا على مفاهيم النظرية.

25. آن ربول و جاك موشلار ، **التداولية اليوم علم جديد في التواصل** ،ص14.

26. المرجع نفسه، ص54.

27. المرجع نفسه، ص55.

28. يمثل تيار المنظومية نظرية اقترحها الفيلسوف و عالم النفس المعرفي الأمريكي جيري فودور *Jerry Fodor* و التي لها علاقة بأبحاث غال *Gall* التي تستند إلى علم النفس الملكات . و تعرّف المنظومة عموماً بأنها مجموعة الوحدات المستقلة المترابطة . و تيار المنظومية يقول بأن المنظومة تتكون من صنفين من الأنظمة المعرفية هما الأنظمة المركزية التي توافق التفكير المفهومي و الاستدلالي و الأنظمة الطرفية أو أنظمة المعالجة التي تصلح لتقديم المعلومات المناسبة للأنظمة المركزية .

29. آن ربول و جاك موشلار ، **التداولية اليوم علم جديد في التواصل** ، ص72.

30. *1* المرجع نفسه، ص82.

31. المرجع السابق، ص77.

32. آن ربول و جاك موشلار لا يعدان الخطاب ظاهرة لغوية إنما يعتبرانه ظاهرة تداولية ، فلا يمكن اختزال الخطاب في الجمل المكون له بل هو مجموع الأقوال المكون للخطاب باعتبارها . الأقوال . وحدات تداولية تختلف عن الصوتيم و الصيغم و الجملة